



## قصة المرأة الباكستانية.. وصراع الهوية!

في مجموعة القصص التي نشرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، عام ٢٠٠١م لمجموعة من الكاتبات الباكستانيات، وترجمها عامر الزهر، وراجعها شاهر عبيد، يظهر تأثير قيام دولة خاصة للمسلمين في شبه القارة الهندية واضحا، وينكشف ذلك القلق الفكري والقومي والإنساني، في اللغة والقضايا والتطورات التي تطرحها هذه المجموعة، فضلا عن المراوحة بين التجارب الذاتية التي ترتبط عادة بعبء المرأة وتصوراتها في مجال الأدب، والاهتمام بالقضايا الكبرى التي تحكم عالم السياسة والعالم الثالث.

### اثنتا عشرة قصة:

تضم المجموعة اثنتي عشرة قصة لكاتبات باكستانيات، ظهرت في الفترة من الستينات إلى الثمانينات من القرن العشرين الميلادي لعذراء عباس، وفاطمة لطاف، وخديجة مستور، وحجاب امتياز علي، وممتاز شيرين، وراضية فاسح أحمد، وفاهميدا رياض، وجميلة هاشمي، وفرخاندا لودهي، وأومي يوما، وخالدة حسين، وفي المجموعة قصتان لممتاز شيرين.



د. حلمي محمد القاعد- مصر

(\*) مجلة الحج والعمرة- ذو الحجة ١٤٢٥هـ.



ويلاحظ أن القصص التي بين أيدينا تركز بصورة أو بأخرى على معاناة المرأة الحقيقية أو المفتعلة، في زواجها وطلاقها أو انتقالها من مكان إلى مكان، أو مشاعرها وعواطفها، أو حريتها وقيودها، أو استقرارها وغربتها، أو.....

### روايات ملخصة:

ثم إن هذا التركيز يبدو في أحيان كثيرة ملتبساً بها التصور الغربي لقضية المرأة، والعلاقة بين الذكر والأنثى لدرجة يتحول معها الرجل المسلم أحياناً إلى طاغية مستبد، وشريك متوحش، والمرأة أمامه ضحية مستباحة، لا حول لها ولا طول!

ومع ذلك سنجد نموذجاً للمرأة الشريرة التي تؤذي الجميع، وتؤذي نفسها، وإن كان هذا السلوك ناتجاً في أسبابه عن ظلم المجتمع، والرجل معاً.

كما يلاحظ أن هذه القصص باستثناءات قليلة تبدو مشروعات روايات، أو هي ملخصات لروايات طويلة، تسهب الكاتبة في تعديد الأحداث والشخصيات، وتطيل الزمن وتويع الأماكن إلى دوائر فسيحة أو متسعة.

وتبدو بعض القصص أقرب إلى التعبير الاجتماعي وهموم المجتمع بصفة عامة، مع أنها

تجربة ذاتية نسوية، كما يبدو بعض آخر أقرب إلى الشحنات العاطفية والومضات الشعرية.

وفي قراءة سريعة وخاطفة للمجموعة يمكن أن نكتشف بعض هذه الملامح أو غيرها، ولكنها في مجموعها تؤكد على هموم مشتركة بين معظم الكاتبات، ومعاناة كل الكاتبات إزاء الانتماء إلى هويتين، والتطلع إلى هويات أخرى، وخاصة الهوية الغربية. تقدم (عذراء عباس) قصتها القصيرة، (ارتحالات النوم) في صياغة شعرية متميزة - الكاتبة شاعرة أصلاً - ولكن قدرتها على تشخيص الماديات واستخدام المجاز تمنحها طاقة ملحوظة على العزف المنفرد على هموم الذات، وخاصة الإحساس بالوحدة، والشوق إلى الآخر.. إنها تختتم قصتها ختاماً شاعرياً يؤكد رهافة إحساسها.. وتقول:

يا ضياء الوقت الذي يتدخل  
عبر أغنيات اللحظات، امنحني  
رشفة ظمناً، أي ذلك كله ذلك  
الذي يتدثر الظلام.

وفي قصة فاطمة الطاف، وعنوانها (عندما تبكي الجدران) تبدو مأساة المرأة الباكستانية الفقيرة واضحة ومقنعة، وللقصة بداية دالة تتخذ من أحد عناوين

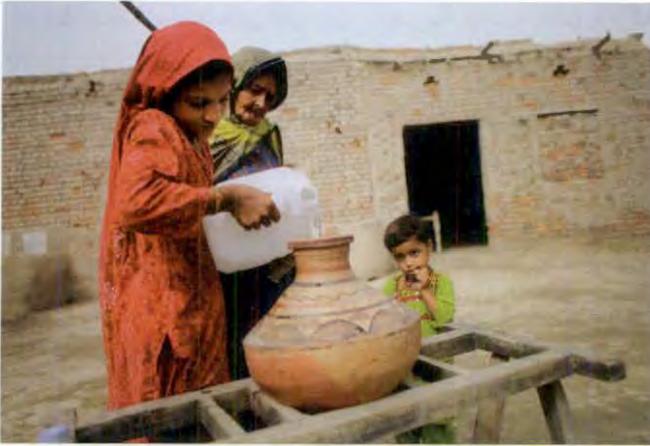
الجرائد وسيلة لإثارة انتباه القارئ، تقول: «سحب العربات التي تجرها الخيول من شوارع لاهور تدريجياً»، ثم تنتقل لتسجيل الواقع المحلي والعادات والتقاليد السائدة.

وفي سرد (فاطمة الطاف) تبدو آثار الثقافة الإسلامية السائدة واضحة جلية، فنقرأ كلاماً عن حكمة الله، وقراءة القرآن، ووأد المرأة حية، وذكر اسم الله أو الأذان في أذن المولود.

### نموذج غريب:

أما خديجة مستور في قصتها (الغراب)، فتقدم لنا من خلال بناء روائي مركز، نموذجاً غريباً، بل شاذاً في عالم المرأة، إنه نموذج المرأة الفقيرة التي تتحول إلى مخلوق شرير، بسبب الفقر والظلم والجوع والاضطهاد، فضلاً عن الحرمان من الابن، أو فقدان الأمومة، الذي يتحول إلى صراع ينتهي بكارثة فاجعة.

إن (الغراب) امرأة تحولت إلى زعيمة في السجن، وتسميتها الغراب تقليد للمافيا-عصابات الجريمة المنظمة- التي تسمى زعيمها غراباً، وهي في غضب الجوع، تستبيح كل شيء، وتدمن الحشيش، وتلعن صنف الإناث، وفي السجن الذي تدخله نقابل



نماذج عديدة لنساء مهزومات، يصورن بشجاعة الرجل وظلمه لهن، ولكن الغراب مع قسوتها وشراستها تعاني عذاب الأمومة، حين ترى سجينه ترضع طفلها الوليد الذي تتعلق به، وتحاول أن تمارس معه أمومتها المتقدمة، وينتهي بها الأمر إلى نهاية مأساوية فاجعة، حين تأخذ ابن السجينة وتربطه على صدرها وهو ممسك بحلمة ثديها في فمه، وعيونها شاخصة من المحاجر، وجسدها بارد يابس!!

ولا شك أن رواية الغراب القصيرة تعطي نموذجا لتحولات المرأة يختلف عن النموذج السائد الذي تشغله السيوالة العاطفية، حقيقية أو مدعاة، ويقدم جانباً آخر يندر أن نراه في قصص المرأة عموماً.

### مفارقات:

في قصة حجاب امتياز علي وعنوانها (وحصل له حادث) نعيش مع العلاقات الزوجية في مفارقاتها الغريبة، ودور الصديق في إفساد هذه العلاقة وفصمها.

وتقدم ممتاز شيرين نمطاً آخر للعلاقة العاطفية العميقة في قصتها (الصحوة) من خلال تعلق طالبة بأستاذتها، وامتداد هذه العلاقة إلى المجال الأسري، وتجاوز الاختلاف العقدي والفكري.

وفي القصة شخصيات نسائية تتحرك وتتفاعل، والرجل واحد فقط، لا نراه ولا نشعر به، فقط نسمع عنه، بوصفه محور اهتمام الشخصيات النسائية المعنية (أبا جلتار، الأنسة فنس.. كاريمان.. زكية.. زبيدة) صلة المرأة بالمرأة في هذه القصة حميمة



وعميقة، ولكنها تتأثر بالصورة الخارجية، أو الشكل، الذي يشغل المرأة غالباً، بل هو عذابها في كل زمان ومكان.. لذا نجد وصف النساء لبعضهن يكثر على صفحات القصة، وهو وصف يتراوح بين المديح والانتقاص والسخرية. تسخر إحداهن من الأخرى فتطلق عليها لقب (السوداء) مع أن بشرتها حنطية.. أما المديح فمجاله عريض: طول الجسم ورشاقتها هما أساسيات الجمال، بياض البشرة « هل يمكن لأحد أن يكون جميلاً وبشرته ليست وردية بيضاء اللون؟» أما الوصف السلبي فيتمثل في هذه الصورة: « وكانت كالعصا الطويلة المبرية، فلم تكن لها انحناءات جذابة في شكلها.... فهي ليست

إن ممتاز شيرين - وتبدو أفضل الكاتبات على المستوى الفني- توظف المفارقات للتعبير عن مأساة الفقراء في المجتمع، ومنها على سبيل المثال منظر زوج المتوفاة الفقير، وهو يقدم نفسه للمستشفى كي يتبرع لزوجته بالدم. تنظر إليه الطيبة من رأسه إلى أخمص قدميه. هل سيتبرع بالدم، هذا المتهدل النحيل؟ هو نفسه ليس لديه إلا القليل من الدم! لكن نظرت الموزعة أتت بالإجابة بعزمه: سأعطيها أي كمية تحتاجها إذا كان ذلك ينقذ حياتها.

ممتاز شيرين لديها حساسية الواقع الخارجي الذي توظفه في موازاة الواقع الداخلي للشخصيات، فتوظف المكان والزمان، والمغزى، ولنقرأ نهاية القصة، والزوج يحمل جثة زوجته هابطا الدرج، ليخرج من المستشفى.

الدرجات كانت ضيقة ومعتمة، كانت هناك ظلمة في كل ما حوله، ظلمة الليل، ظلمة الموت، الدرجات تبدو بلا نهاية، طريق طويل إلى الأسفل.. الأسفل.. انحدار طويل.. هبوط الانحدار الأخير.

### اضطهاد المرأة:

قصة الجحيم التي كتبتها راضية فاسح أحمد، تعد رواية قصيرة، تمزق على وتر اضطهاد المرأة، وتقدم نموذجا غريبا لاضطهادها، وتحثني بالثقافة الغربية في نظرتها إلى المرأة وتعاملها معها، في الوقت الذي تهجوه فيه الرجل الشرقي هجاء شديدا، وتصوره في أقبح صورة..

إنها تقدم صورة امرأة اسمها (قدسية) يرغمها أهلها ويقهرونها على الزواج من رجل غني، يعد سيد المنطقة التي تعيش فيها، اسمه (الخان الأكبر)، ويعزلها بعد الزواج مع بقية النساء في مبنى متواضع معتم، تفصله عن القصر المنيف الذي يعيش فيه مسافة كبيرة وحراس، وتنجب له طفلا اسمه

سوى قطعة من الخشب المسطح بلا حياة... الوصف بالجمال والقبح هو ما يشغل النساء، والمرأة عموما، على امتداد القصة.

والنساء يهتمن بشكل الرجل أيضا، جمال الجسم وحلاوة العينين، ومع هذا الاهتمام بالشكل بين المرأة والمرأة، والمرأة والرجل، فإن علاقة المرأة بالمرأة مهما تعمقت وتأهلت تبقى أضعف كما تخبرنا القصة. فإن العلاقة بين المرأة والرجل ممثلة في الخطوبة والقران والزواج تنتصر على كل علاقة.. لأنها العلاقة الرابعة الطبيعية!

### الانحدار:

ممتاز شيرين واقعية في كتابتها وتصورها. إنها مع الحلول العملية المنحازة للإنسان، لذا تعالج تأثير الفقر على المرأة وتعد -بصورة ما- انعكاسات، أو نموذجا عكسيا لقصة (الجحيم) التي كتبتها راضية فاسح أحمد، وتعزف على وتر اضطهاد المرأة في نموذج غريب وشاذ، وستشير إليها بعد قليل.

إن ممتاز شيرين تنتقد بقسوة طبقيّة العلاج وعدم قدرة الفقراء، نساء ورجالا على المعالجة في المستشفيات، بسبب النظام الاستغلالي الحر في المجتمع القاسي الذي لا يرحم، مما جعل الفقر هو الجحيم بحق! إن المستشفى الذي يصر على عدم تسليم جثة المرأة المتوفاة لزوجها إلا بعد قبض مصاريف العلاج، يمثل أبشع صور القسوة في المجتمع، وتمتد القسوة حين يسمع زوجها المرضات يتهايمن، وهن يتحدثن إلى بعضهن: (على أية حال فقد رأينا الكثير من الأموات هنا، لم يخفنا منظر الأجساد الميتة أبدا، لقد تعودنا على ذلك لكن انظري لها.. ألا تشعرين؟) كن يوجهن إليها الإهانة حتى في موتها.



(ناصر)، ولكنها تهجره لمدة تزيد على عشرين عاما، لا ترى فيها وليدها الذي كبر وصار رجلا.. وتحاول الهروب ولكن المحاولة يتم إحباطها، وتبدو الإشادة بالغرب وثقافته بديلا.

إحباط المحاولة كانت أحد الأدلة على قوة خان الأكبر وسلطوته وكثرة عيونه، وقد أحبط محاولة أخرى لهروب ابنه ناصر مع صديقه إعجاز، ولكن القصة / الرواية تكشف لنا عن لعبة قديمة للمرأة، وهي قدرة المرأة

أما خالدة حسين فتتحو في قصتها « أطواق النار » منحى مختلفا بعض الشيء، إذ تربط المرأة بالرجل. فهي تصور عذاب المرأة حين يهجرها الرجل أو يفدر بها، ونظرة المجتمع إلى المرأة في حالة زواجها أو عدم زواجها، كما تركز على مشكلة المرأة العانس ومعاناتها للوحدة والجفاف العاطفي.. والكاتبة تحمل من خلال شخصياتها - وكلها نسائية- على الوعي الانهزامي، والإيمان بالخرافات، والتشاؤم، «أقترح أن تبدئي التفكير بالعالم الثالث، وأن توثقي علاقتك بالأمم الرجعية المحرومة المريضة، وهكذا تستطيعي أن تصلحي من أمر نفسك..» ثم جمعت كتبها وذهبت.. «العالم الثالث.. ألسنت مسؤولة عن هذا العالم وما وراء هذا العالم الثالث الذي يعيش فيه داخلي؟ مسؤولة عن أرض مقفرة من الكرب والألم..»

### وبعد:

فهذه إطلالة سريعة على لون من ألوان الأدب في بلادنا الإسلامية الممتدة، تقدمه المرأة الباكستانية وهي تواجه صراعا عاصفا بين الحديث عن همومها الخاصة، وبريق الاندماج في الثقافة الغربية، فكرا وتصورا، بين البحث عن حياة كريمة عادلة، وعذاب الصراع السياسي والعسكري من حولها ■

على الانتقام من الرجل، حينما زعمت لزوجها كذبا أن الأجنبي لمسها بموافقتها، ثم اختفت في جناح النساء، ورفضت منذ ذلك اليوم أن تقابل أحدا.. وتحول زوجها الطاغية إلى حالة يرثى لها، وحاول أن يقابلها لتتفي ما زعمته ولكنها رفضت لقاءه. وظلت صامتا كالحجر.. فتوفي بعد ذلك بوقت قصير بعد أن حطمت كبرياءه!

المفارقة أن الكاتبة تقدم لنا ابن الرجل-ناصر (في صورة تتماهى مع التقاليد الغربية، حيث يعتمد تقديم زوجته، ابنة المدينة المتعلمة الغربية عن المنطقة التي يعيش فيها، لأي أجنبي يأتي لزيارته: والغريب أنه يقول: لا أعرف لماذا أفعل ذلك؟ ولكن صديقه (إعجاز) يفهم تماما لماذا يفعل صديقه ذلك!

### أطواق النار:

في قصص فاهيمد ارياض وجميلة هاشمي وفرخان لودهي وأومي يومارا يظهر أثر تقسيم القارة الهندية والصراع المسلح بين الهند وباكستان، والانتقال من باكستان إلى بنجلاديش، واضحا على تفاوت، وتبدو فيه المرأة ضحية ومعذبة، وهي التي تدفع الثمن غالبا، وخاصة التمزق بين عالمين وهويتين..